الفصل الخامس
تحول الخزر إلى اليهودية تبعاً للمصادر العربية

لا يوجد بالعربية رواية واحدة مشهورة، ومعتمدة حول تهود الخزر، ولربما كانت اكثر الروايات شهرة وتفصيلاً هي الرواية التالية المنقولة من كتاب مروج الذهب، الواسع الشهرة، للمسعودي، وكان المسعودي قد بدأ بتصنيفه سنة 332/ 943، وأنهاه في سنة 336/ 947، يقول المسعودي: «وفي هذه المدينة (يعني أتل، عاصمة دولة الخزر على الفولغا) خلق من: المسلمين، والنصارى، واليهود، والجاهلية، فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه، وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (943/ 944م)، وهو أرمنوس (يعني رومانوس ليكابينوس) نقل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية أخبار ملوك الروم وأعدادهم، وأخبار هذا الملك ومن قد شاركه (أي قسطنطين بورفي روجنتوس) في ملكه في هذا الوقت المؤرخ، فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا، وكان لليهود مع ملك الخزر خبر ليس هذا موضع ذكره، وقد ذكرناه فيما سلف من كتبنا»[1].

---

(1) مروج الذهب: 2/ 8 ـ 9، ولقد اتبعت ترتيب مخطوطة البودليان، مارش 343 (1/ 792) وهي التي تولى ترتيبها الأستاذ كاهل.

وإنها لمسألة ذات ارتباط تلك التي أشار إليها المسعودي في كتابه هنا ذلك أن روايته في حكم المفقودة الآن، ولقد جاء في كتاب الدمشقي (727/ 1327) ما يلي: «ما حكاه ابن الأثير أن صاحب قسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان في مملكته من اليهود، فقصدوا بلد الخزر، فوجدوا قوماً عقلاء ساذجين، فعرضوا عليهم دينهم، فوجدهم أصلح مما هم عليه فانقادوا إليه»[1].

وأشار مرقوارت الذي بحث بدون نجاح عن النص لدى ابن الأثير، أن المعني هنا ليس ابن الأثير بل المسعودي[2]، زد على هذا البكري الأندلسي (487/ 1094) قد ذكر أن السبب في تحول ملك الخزر إلى اليهودية، هو «أنه كان قد اعتنق المسيحية أولاً، ثم أدرك خطأ معتقده، وشرع بالحديث مع واحد من ولاته حول الهم الذي شغل خاطره، وقد قال له الوالي: أيها الملك إن أهل الكتاب يشكلون ثلاث جماعات، ادعهم واسألهم، ثم اتبع الذي يملك الصدق أكثر من سواه، وهكذا طلب من المسيحيين أن يبعثوا إليه بأسقف من عندهم، وصار معه الآن يهودي بارع في الجدل، تناظر مع الأسقف وسأله: ماذا تقول عن موسى بن عمران والتوراة التي أنزلت عليه؟ وأجابه الأسقف: موسى كان نبياً والتوراة صحيحة، وهنا قال اليهودي للملك: لقد أقر بصحة عقيدتي، وسأله الملك عن ذلك فقال: المسيح عيسى بن مريم هو الكلمة، وقد أصبح هذا معروفاً باسم الرب، وعند ذلك قال اليهودي مخاطباً ملك الخزر: إنه يؤمن بعقيدة لا أعرفها، وذلك في الوقت الذي يقر فيه بما عرضته، ولقد كان الأسقف ضعيفاً في عرض حججه، لذلك استدعى المسلمين فبعثوا له برجل عالم وذكي يفقه بالمناظرة، ولذلك اكترى اليهودي من قام بدس السم له وهو في طريقه»[3].

ومهما يكن قوله عن محتوى هذه القصة، فإنها تفيدنا بقيام مناظرة دينية قبل تحول الخزر إلى اليهودية، وهي لذلك رواية فريدة في بابها في المصادر العربية المتوفرة، هذا

---

(1) صورة الأرض، تحقيق مهرن: 263.

(2) مرقوارت: 6.

(3) تحقيق كرنك وروسن: 44 (ترجمة مرقوارت: 7 ـ 8).

وينبغي الاهتمام بالدور الذي شغلته شخصية خزرية أخرى هامة، وهذا واضح في الروايات العبرية[1]، ففي هذه الروايات لم يكن الملك هو الذي اقترح عقد المناظرة، وإذا صح الافتراض ـ كما ذهب مرقوارت ـ أن رواية البكري هي بالأساس منقولة عما جاء في رواية المسعودي المفقودة، يمكننا عندها دمجها مع ما سلف، ونقلناه عن المسعودي حين ذكر أن عملية التحول جرت بعد مناظرة قامت أمام ملك الخزر، وأن ذلك حدث ليس بعد سنة 819م «سنة وفاة هارون الرشيد» ولا تتوافق هذه المحصلة مع الروايات اليهودية، فتبعاً ليهودا هاليفي في كوسري Cosri (كزاري Kuzari) جرت عملية التحول بعد المناظرة حول مكانة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، الأمر الذي كان المؤثر في القضية، (والموضوع الرئيسي لجزء كبير من رد يوسف) وذلك سنة 740م، وقد يصل الفارق بالتأريخ بالنسبة لما ذكره المسعودي إلى أقل من خمسين عاماً (أصبح هارون خليفة في سنة 170هـ/ 786) وعلى أساس أن المسعودي ـ بلا شك ـ كتب بتسرع[2] بعد قرن ونصف القرن من أيام هرون، لا يمكن أن نأخذ تحديداته بشكل جدي كبير.

وعلينا الآن أن نرى المزيد من الشواهد في المصادر العربية من أجل تحديد تاريخ التحول، والظروف التي جرى في ظلها هذا التحول، ومن الموائم أن نبدأ مع الاصطخري الذي جاء في روايته قوله[3]: «وأما الخزر فإنه اسم الإقليم، وقصبته تسمى أتل[4]، وأتل اسم النهر الذي يجري إليه من الروس وبلغار، وأتل قطعتان[5]: قطعة

---

(1) انظر الفصل السادس.

(2) انظر مرقوارت: 35.

(3) تحقيق دي غوية: 220 ـ 226. وقد استخدمت مجموعة مخطوطات تشستر ـ بيتي، ترتيب الأستاذ كاهل (ك).

(4) ضبطها دي غويه «إتل» لكن الشكل العربي الأصح والضبط المعروف هو «أتل» وأحياناً «آتل» وفي العبرية «اتل» (رد ابن داود، النص الطويل) و«تل» في «وثيقة كمبردج»، «اتل» (الداد ـ هـ ـ داني) دائماً مع (ودائماً قرب النهر) وآمل في طبعة باريس من مروج الذهب هي متاهة حقة كان ما يزال لها تأثيرها.

(5) كانت المدينة تبعاً لآخرين تتألف من ثلاثة أقسام، ويقترح بري أن الجزء الغربي من المدينة ضم جزيرة عاش عليها ـ تبعاً للمسعودي ـ (انظر ما يلي) الملك (الإمبراطورية الرومانية الشرقية: 403).

على غربي هذا النهر المسمى أتل وهي أكبرها، وقطعة على شرقيه[1]، والملك يسكن في الغربي منها، ويسمى الملك بلسانهم (بك)، ويسمى أيضاً (باك)، وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ، ويحيط بها سور إلا أنه مفترش البناء، وأبنيتهم خركاهات لبود، إلا شيئاً يسيراً بني من طين[2]، ولهم أسواق وحمامات، وفيها خلق من المسلمين، يقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم، ولهم نحو ثلاثين مسجداً، وقصر الملك بعيد من شط النهر، وقصره من آجر[3]، وليس لأحد بناء من آجر غيره، ولا يسوغ الملك لأحد أن يبني بالآجر، ولهذا السور أبواب أربعة، منها إلى ما يلي النهر، ومنها إلى ما يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة[4]، وملكهم يهودي يقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل، والخزر: مسلمون، ونصارى[5]، ويهود، وفيهم عبدة أوثان، وأقل الفرق اليهود، وأكثرهم المسلمون والنصارى، إلا أن الملك وخاصته يهود.

---

(1) ابن حوقل (تحقيق دي غويه: 278) حيث يضيف أن اسم الجزء الغربي «أتل» والجزء الشرقي «خزران»، ونجد في الطبعة الثانية (كريمر: 389) الجزء الغربي اسمه خزران والجزء الشرقي أتل، ويبدو أن كريمر أراد أن يظهر أن دي ـ غويه وقع بالخطأ، ولقد قال ابن حوقل في أماكن أخرى (ط. كريمر: 15) إنها كانت مدينة صغيرة.

(2) قيل بأن البيوت القديمة في المدينة المزدوجة كانت من الخشب. انظر مرقوارت: 18 وبري، المصدر نفسه، وإنني لا أعرف على أي شيء اعتمدا (من الصعب القول المقدسي: 361).

(3) من المعقول الإشارة إلى أن القلعة قد بنيت في وقت ما بعد بناء ساركيل على الدون (انظر ما يلي، الفصل السابع) وتقليداً.

(4) جملة مضافة في (ك).

(5) أشير إلى أستيل (أتل) كبلدة خاضعة لمطرانية في دوروس تحت إشراف بطريرك القسطنطينية، وذلك في وثيقة من القرن الثامن تعرف باسم «أسقفية نوتشيا» (كولكوفسكي)، «الأسقفية القوطية» Zh. M. N. Pr. 1898، بالروسية. انظر أيضاً فازلييف، القوط في القرم: 97) وتعرض الوثيقة نفسها الخزر باسم «خوتزيرون» (خوتزرون) حيث «ون» إضافة تعني الجمع، ونجد في ترجمة ستيفن السوداكي في القرم (قرن ثامن) اسم زعيم خزري محلي هو الطرخان جورج الذي كان مسيحياً أرثوذكسياً (تحقيق فازلييف، نقلاً عن بولياك، التحول 2).

والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم، وأحكام خصوا بها على رسوم قديمة مخالفة لدين[1] المسلمين، واليهود، والنصارى، وللملك من الجيش[2] اثنا عشر ألف رجل، وإذا مات منهم رجل أقيم آخر مكانه، وليست لهم جراية دارة إلا نزر يسير، يصل إليهم في المدة الطويلة، إذا كان لهم حرب أو حَزَبَهُمْ أمر يجتمعون له.

وأبواب مال هذا الملك[3] من الأرصاد، وعشور التجارات على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر، ولهم وظائف[4] على أهل المحال والنواحي من كل صنف، مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك، وللملك سبعة من الحكام[5] من: اليهود، والنصارى، والمسلمين، وأهل الأوثان، إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه، وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء، وبين الملك، سفير يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليه، فيرد عليهم أمره ويمضونه.

وليس لهذه المدينة قرى إلا أن مزارعهم مفترشة، يخرجون في الصيف في الزورع نحو عشرين فرسخاً ليزرعوا، ويجمعوا بعضه على النهر، وبعضه على الصحاري، فينقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر، والغالب على قوتهم الأرز، والسمك، وهذا الذي يحمل منهم من العسل والشمع إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار، وكذلك هذه الجلود الخز التي تحمل إلى الآفاق، لا تكون إلا في تلك الأنهار، التي بناحية بلغار، والروس، وكويابه (كييف)، ولا تكون في شيء من الأقاليم فيما علمته.

---

(1) وواضح من هذا النص وغيره أن القانون التركي المطبق في بلاد الخزر لم يكن قانوناً يهودياً.

(2) عند ابن حوقل (ط. كريمر: 390) بدلاً من ذلك «جميع جيش الخزر».

(3) كذلك في (ك).

(4) في ط. دي غويه «ولهم» وفي (ك) «وله».

(5) انظر فيما يلي المسعودي، الفصل السابع، معجم البلدان: 2/ 437. وهناك خطأ قوله «تسعة قضاة».

والنصف الشرقي من (عاصمة) الخزر فيه معظم التجار، والمسلمين والمتاجر، والغربي خالص للملك وحاشيته[1]، وجنده والخزر الخلص[2]، ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسية: ولا يشاركه لسان فريق من الأمم[1].

---

(1) إضافة في ك.

(2) ترجم مرقوارت (41 ـ الحاشية 2) عبارة Egentliche chazaren إلى الخزر الحقيقيين، عاداً إياهم «خزراً بيض» الذين ربما يشير إلى وجودهم الاصطخري (انظر ما يلي) آق، خزر كما هو مفترض (انظر أكتزير في الفصل الأول)، وبرأي زكي وليدي (ابن فضلان: 217 مع الحاشية) أن العبارة لابد أنها تشير إلى الخوارزميين الذين كانوا في خدمة الخزر، ونقرأ لدى المسعودي وابن حوقل. الطبعة الثانية، عبارة «الخزر الخلص» بدلاً من «الخزر الخاص» (الاصطخري وابن حوقل، ط. أولى) (ولعدم رضاه بهذا استخدم عبارة مرقوارت السالفة، ابن فضلان: 270، ومن المؤكد أن صيغة الجمع «خلص» قد جاءت مباشرة بعد صيغة المفرد «خالصه» في مختلف الجمل هي محرجة، على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه جاء في مخطوطة تشستربيتي من الاصطخري (ك) «الخزر الخاص»، ويمكن أن يكون هذا هو الصحيح، هذا ونجد في ابن حوقل (الطبعة الأولى) «الخاصة» بدلاً من «الخالصة» في (الطبعة الثانية)، ولعل كلمة «خلص» بصيغة الجمع تعني بالفعل «الأبيض» انظر المادة في القاموس. وإذا صحت صيغة «الخالص» يمكن أن نقارنها بكلمة «الخوالص» التي ورد ذكرها مرتان لدى المؤرخ الروسي 3/ 79، وإذا ما أردنا ربط كلمة «خالص/ خوالص» مع خوارزم (باحلال «ر» محل «ل») كما يرى زكي وليدي، فلا شك أن هذا الاسم قد وجد بين الخزر، انظر وثيقة أسقفية نوتشيا حيث «Khoualeso» مثل «Astelo» (رقم 14) و «Tanatarkhao»، الذين عدّوا رعايا لمطران دوروس (فازلييف، القوط في القرم: 99، 101 ـ 103). ويتوافق فازلييف مع كولاكوفسكي (المصدر نفسه) حين اعتقد أن مدينة «خوالي» وقعت في بلاد الخزر قرب مصب نهر الفولغا على أساس ـ تبعاً لفازلييف ـ رواية عربية عن حملة الروس على بحر قزوين، التي سنبحثها فيما بعد (الفصل التاسع): إنني لم أقف على ذكر اسم أي مدينة خزرية في المصادر العربية دعيت «خوالي» أو «خوالص» وورد ذكر «خوالينسك» في تلك المنطقة على الفولغا (زكي وليدي، ابن فضلان: 217). وهناك احتمالات أخرى بوجود «خوالص» ـ كما أشار هورث ـ (مؤتمر المستشرقين الثالث: 2/ 139) عند مناندر (300، 383) الذي ذكر «خلياتي» أو «خولياتي» ولعل صيغتها الصحيحة «خواليتي» (لكن تبعاً لمرقوارت خواليتي ـ خلج) خلتش ـ انظر مينورسكي. حدود العالم: 347). لكن يبدو أن الاسم وكما يبدو الشعب أيضاً ظلا موجودين حتى بعد سقوط دولة الخزر، فلقد ورد ذكر «الخالصوي» كمجموعة مقاتلة ضد مانويل كومينوس في القرن الثاني عشر (جون سيناموس. ط. بون: 107، نقلاً عن فازلييف، القوط: 99)، وكانوا قد احتفظوا حتى ذلك الوقت بقوانين موسى، لكن ليس بشكل نقي، كما ترجم فازلييف من الإغريقية، وفي الوقت نفسه تبنى الآخرون «الهون» أي الهنغاريون، ويستخلص من نص آخر من المصدر نفسه (ط. بون: 247) أن «الخالصوي» كانوا من رعايا =

وأما نهر أتل، فإنه فيما بلغني، يخرج من قرب جرجيز، فيجري فيما بين الكيماكية، والغزّية، وهو الحد بين الكيماكية، والغزّية، ثم يذهب غرباً على ظهر بلغار، ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس، ثم يمر على بلغار، على برطاس حتى يقع في بحر الخزر، ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً، ويبقى عمود النهر يجري على الخزر حتى يقع في البحر ويقال إن هذه المياه إذا كانت مجموعة في نهر واحد أعلاه يزيد على جيحون، ويبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر، فتجري في البحر داخلاً مسيرة يومين، وتغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء لعذوبته وحلاوته، ويبين في البحر لونه من لون ماء البحر.

وللخزر مدينة تسمى سمندر فيما بينها (العاصمة)[2]، وبين باب الأبواب لها بساتين كثيرة، ويقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حد السرير[3]، والغالب على ثمارها الأعناب، وفيها خلق من المسلمين، ولهم بها مساجد، وأبنيتهم من خشب قد

= الهنغاريين، وهنالك قليل من الشك في أنهم هم «الخوالص» الذين كانوا في وقت مضى من الخزر انتقلوا إلى حكم المجر (من أجل هذه المسألة، انظر الفصل السابع) وتتوافق مسألة مراعاتهم لبعض قوانين موسى مع ما نعرفه ويمكن أن نستخلصه عن الخزر، ولا يمكن مطابقة اسم أي من الشعوب التي كانت تدفع الجزية للخزر التي ورد ذكرها في رد يوسف الذي سنراه حالاً، مع الخوالص ـ الخالص، الهالص، ولكن من الممكن أن «الأريسو» الذين ورد ذكرهم هناك هم أنفسهم، وإذا كان الأمر كذلك، فقد كان مقر هذا الشعب أيام الخزر على الفولغا، ومن المغري القيام بمطابقات أخرى بين «أريسو» والأرسية الخوارزميين (أريسية في نص المسعودي المترجم فيما بعد) وربطهم مع «الآس» (اللان) المتداول الآن أمر غير مؤكد، ولا يوجد توضيح للعلاقات الغامضة بين الخزر والخوارزمية، وهذا غير ممكن من عبارة «حليس طرخان» الذي كان مقاتلاً، انظر الفصل السابع.

(1) كدس ـ جملة كافية ـ كما يبدو شرح يعني «جملة كاملة» أو كامل.

(2) في النص «فيما بينه» دون أن يتقدمها كلام واضح، مما يثير بعض الاضطراب (انظر مايلي).

(3) يعني إمارة الأفار ـ انظر مينورسكي ـ حدود: 447.

نسجت، وسطوحهم مسنمة، وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر[1]، وبينهم وبين حد السرير فرسخان[2]، وبينهم وبين صاحب السرير هدنة.

والسرير هم نصارى، ويقال إن هذا السرير كان لبعض ملوك الفرس، وهو سرير من ذهب لبعض ملوك الفرس، فلما زال ملكهم حمل إلى السرير، وحمله بعض ملوك الفرس، بلغني أنه من أولاد بهرام جوبين[3]، والملك إلى يومنا هذا فيهم، ويقال إن هذا السرير عمل لبعض الأكاسرة في سنين كثيرة، وبين السرير وبين المسلمين هدنه، وإن كل واحد منهم يحذر صاحبه[4]، ولا أعلم في عمل الخزر مجمع ناس سوى سمندر[5].

وبرطاس هم أمة متاخمون للخزر، ليس بينهم وبين الخزر أمة أخرى، وهم قوم مفترشون على وادي أتل، وبرطاس اسم الناحية، وكذلك الروس والخزر والسرير للمملكة لا للمدينة ولا للناس.

والخزر لا يشبهون الأتراك، وهم سود الشعر، وهم صنفان، صنف يسمون قرا خزر، وهم سمر يضربون لشدة السمرة - إلى السواد، كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض، ظاهرو الحسن والجمال، والذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان، الذي يستجيزون بيع أولادهم، واسترقاق بعضهم بعضاً، فأما اليهود منهم والنصارى فإنهم تدين بتحريم استرقاق بعضهم بعضاً مثل المسلمين، وبلد الخزر لا يرتفع شيء منه يحمل إلى الآفاق غير الغري، وأما الدقيق[6]، والعسل، والشمع، والخز، والأوبار، فمجلوب إليها، ولباس الخزر وما حواليها القراطق، والأقبيه[7]، وليس يكون عندهم

---

(1) لعله كان «تودون» كما يقترح مرقورات: 21، يعني حاكماً معيناً من قبل السلطة الخزرية المركزية وليس حاكماً وراثياً (انظر زكي وليدي بن فضلان: 106) انظر حاكم بلنجر (الفصل الرابع، الحاشية 36).

(2) من المدهش أن سمندر هي قزلار يومنا هذا على الترك (زكي وليدي Volkerschaften: 47) ويبدو أن المسافة قصيرة جداً. انظر مينورسكي، حدود 72.

(3) ورد ذكر بهرام جوبين وهو نشط على جبهة القوقاز تحت حكم كل من أنو شروان وهرمز الساسانيين.

(4) حوت (ك) وحدها الفقرة الأخيرة.

(5) يعني فيما عدا العاصمة الخزرية.

(6) في النص «الزيبق» لكن «الرقيق» حسبما جاء في (ك) هي المفضلة، انظر دي غويه: 223.

(7) يعني ثوب داخلي وخارجي.

شيء من الملبوس، وإنما يحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينيا، وأذربيجان والروم[1].

وأما سياستهم وأمر المملكة بهم، فإن عظيمهم يسمى (خاقان خزر)، وهو أجلّ من ملك الخزر، لأن ملك الخزر هو الذي يقيمه[2]، وإذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاءوا به فيخنقونه بحريرة حتى إذا قارب أن ينقطع نفسه[3] قالوا له: كم تشتهي مدة الملك؟ فيقول: كذا وكذا سنة، فإن مات دونها (كان به)، وإلا قتل إذا بلغ تلك السنة[4]، ولا تصلح الخاقانية عندهم إلاّ في أهل بيت معروفين[5]، وليس له من الأمر والنهي شيء، إلاّ أنه يعظم ويسجد له إذا دخل إليه، ولا يصل إليه أحد إلاّ نفر يسير مثل الملك ومن في طبقته، ولا يدخل عليه الملك إلا لحادثة، فإذا دخل عليه تمرغ في التراب وسجد وقام من بعد، حتى يؤذن له بالتقرب، وإذا حزبهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان، فلا يراه أحد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف ولم يقاتله تعظيماً له، وإذا مات ودفن لم يمر بقبره أحد إلاّ ترجّل وسجد، ولا يركب ما لم يغب عن قبره، ويبلغ من طاعتهم للملكهم[6] أن أحدهم ربما يجب عليه القتل - ويكون من كبرائهم - فلا يحب الملك أن يقتله ظاهراً، فيأمره أن يقتل نفسه، فينصرف إلى منزله ويقتل نفسه. والخاقانية في قوم معروفين ليس لهم مملكة ويسار، فإذا انتهت الرئاسة إلى أحدهم عقدوا له ولم ينظروا إلى ما عليه حاله، ولقد أخبرني من أثق به أنه رأى في بعض أسواقهم شاباً يبيع الخبز، كانوا يقولون: إن خاقانهم إذا مات فليس أحد أحق منه بالخاقانية، إلا أنه كان مسلماً ولا تعقد الخاقانية إلا لمن يدين

---

(1) حصل الغز الأتراك كذلك، تبعاً لابن فضلان: 25، على الملابس من أراضي المسلمين جنوب جيحون.

(2) يعكس ابن حوقل الأدوار ويجعل الخاقان يتولى تعيين البك.

(3) انظر مواز مدهش في الرواية الصينية العائدة لـ «تو - كوبه» (ترجمة في سانت - جوليان - المجلة الآسيوية: 6/ 3 (1864)/ 332).

(4) انظر ما قاله ابن فضلان عن هذا فيما يلي، وللسير. ج. غ فريزر بحث عن الموضوع بعنوان: «قتل ملوك الخزر» (فولكلور: 28 - 1917) وإليه نبهني مشكوراً د. هـ. غ. فريمر.

(5) انظر بعد بضعة أسطر. هل كرر الاصطخري نفسه أو هل ذلك إشارة إلى أن روايته عن خاقان الخزر ملغاة.

(6) أي الخاقان. انظر ابن فضلان ولاسيما ملاحظاته عن أعمال الخاقان بعد الهزيمة.

باليهودية، والسرير والقبة الذهب[1] التي لهم، لا تضرب إلا لخاقان، ومضاربه، إذا برزوا فوق مضارب الملك، ومسكنه في البلد أرفع من منزل مسكن الملك.

وبرطاس اسم للناحية، وهم أصحاب بيوت خشب، وهم مفترشون، وبشجرت (البشكير) هم صنفان، صنف في آخر الغزية على ظهر بلغار، ويقال إن مبلغهم نحو ألفي رجل[2] ممتنعون في مشاجر لا يقدر عليهم، وهم في طاعة بلغار، وبشجرت آخر، هم متاخمون لبنجاك (بشناق)، وهم وبجناك أتراك، وهم متاخمون[3] للروم، ولسان بلغار مثل لسان الخزر[4]، ولبرطاس لسان آخر، وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس.

وبلغار اسم المدينة وهم مسلمون، وفيها مسجد جامع، وبقربها مدينة أخرى تسمى (سوار) فيها أيضاً مسجد جامع، وأخبرني من كان يخطب بها أن مقدار الناس بهاتين المدينتين نحو عشرة آلاف رجل، ولهم أبنية خشب يأوون إليها في الشتاء، وفي الصيف يفترشون في الخركاهات، وأخبرني الخطيب بها أن الليل عندهم لا يتهيأ أن يسير فيه الإنسان أكثر من فرسخ في الصيف، وفي الشتاء يقصر النهار، ويطول الليل حتى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف.

---

(1) يبدو أن القبة الذهبية مرتبطة مع الخيمة، العربة التابعة للخاقان (انظر الفصل الرابع) ولم تكن مرتبطة مع الخيمة الذهبية للزعماء الآخرين (بين الايغور والأورخون في سنة 821، انظر مينورسكي، تميم: 279، 294 ـ 295، 303. وكذلك بين زعماء الكريات أيام جنكيز خان. انظر رافرتي، طبقات ناصري: 943، الحاشية) هذا ولئن أمكن إظهار أن امتلاك خيمة ذهبية كان علامة على السيادة، فإن تفاصيل الموضوع يمكن أن تساعد على ربط الخزر بالايغور (انظر الفصل الثاني) وأتى رد يوسف علي «خيمة كنيس» للاستخدامات الدينية بين الخزر في حوالي 960، لكن لا يوجد سبب محدد لجعل هذه الخيمة هي قبة الذهب نفسها الواردة لدى الاصطخري.

(2) ورد الرقم نفسه لدى الكرديزي (تحقيق بارثولد: 95) وتبعاً له كان جد البشكير نبيلاً خزرياً، استقر في وقت من الأوقات بين الخزر، والكيماك، ومعه ألفي رجل.

(3) بجناق أتراك، انظر حدود العالم: الفصل 20.

(4) لقد عدّت لغة البلغار لغة قريبة إلى لغة التشوفاش، مثالاً على ذلك انظر بارثولد، الموسوعة الإسلامية، مادة: بلغار، ومن هنا يبدو أن الاصطخري، كان محقاً في قوله عن لغة البلغار أنها تشابه لغة الخزر، وأنها قريبة للغة التشوفاش، انظر ما يلي.

والروس هم ثلاثة أصناف: فصنف أقرب إلى بلغار، وملكهم يقيم بمدينة تسمى كويابه (كييف)، وهي أكبر من بلغار، وصنف أبعد منهم يسمون الصلاوية (سلاف)، وصنف يسمون الأرثانية، وملكهم مقيم بأرثا[1] والناس يبلغون في التجارة إلى كويابه، فأما أرثا فإنه لا يذكر أن أحداً دخلها من الغرباء، لأنهم يقتلون كل من وطئ أرضهم من الغرباء، وإنما ينحدرون في الماء يتجرون فلا يخبرون بشيء من أمورهم ومتاجرهم، ولا يتركون أحداً يصحبهم ولا يدخل بلادهم، ويحمل من أرثا السمور الأسود والرصاص[2]، والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا، وتحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهم، وبعضهم يحلق اللحى، وبعضهم يفلتها مثل الذوائب، ولباسهم القراطق القصار، ولباس الخزر، وبلغار، وبجناك القراطق التامة، وهؤلاء الروس يتجرون إلى الخزر[3]، ويتجرون إلى الروم، وبلغار الأعظم، وهم متاخمون للروم في شماليها، وهم عدد كثير، يبلغ من قوتهم أنهم ضربوا خراجاً على ما يلي بلادهم من الروم، وبلغار الداخل هم نصارى».

كتبت هذه الرواية الهامة جداً من قبل الاصطخري في حوالي سنة 320هـ/ 932م[4]، ولابد أنه اعتمد على بعض من تقدمه خاصة على البلخي الذي صنف كتابه سنة 308هـ/ 920م أو بعيد هذا بقليل[5]، ولكن إلى أي حد اعتمد عليه؟ نحن في وضع لا يمكننا تبيان ذلك، ومهما يكن من أمر فمن الواضح أن هذه الرواية كانت شائعة وعظيمة الاستخدام، وجرى نقلها ككتلة واحدة من قبل الذين خلفوا الاصطخري،

---

(1) إن صيغة «أرثانيه» «أرثا» ليست مؤكدة ـ انظر مينورسكي ـ حدود العالم: 434. . .

(2) جملة مضافة في ك.

(3) لدى ابن خرداذبه (154) تفاصيل كبيرة منها قوله: «فأما مسلك تجار الروس، وهم جنس من الصقالبة، فإنهم يحملون جلود الخز، وجلود الثعالب السود، والسيوف من أقصى صقلب إلى البحر الرومي، فيعشرهم صاحب الروم، وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة (الدون)، مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها، ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون في أي سواحله أحبوا».

(4) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: 1/ 229، وهو يعطى هناك سنة 340/ 951 دي غويه (Z. D. M. G. 1871: 51) وهو يربط نشر هذا الكتاب بهذا التاريخ لكنه يعتقد أنه كتب فيما بين 318 و321.

(5) بارثولد في حدود: 15.

وهكذا نجد أن ما قاله ابن حوقل عن الخزر وبلادهم هو بشكل فعلي ما رواه الاصطخري (هناك بعض الخلافات بين طبعتي دي غويه وكريمر)[1].

واعتمد ياقوت أيضاً اعتماداً كبيراً على الاصطخري، ولا يتضح هذا للوهلة الأولى، لأن رواية ياقوت عن الخزر مروية عن ابن فضلان، الذي كان واحداً من رسل المقتدر إلى بلغار الفولغا في سنة 310هـ/ 922م، وقد عرض ياقوت ما رآه ابن فضلان نفسه[2]، وهكذا ذكر أولاً أن ملك الخزر يدعى بلغتهم: (بلك أو باك)[3]، ثم ما لبث أن قال فيما بعد إن اسمه خاقان، ونتيجة لهذا وجد بكل بساطة شك ليس في مصداقية ابن فضلان في روايته، لكن الأنكى من هذا في مدى إمكانية الاعتماد على رواية من هذا النوع في تقديم أي إيضاح لمشكلة الخزر.

ويبدو أن دي غويه كان أول من لاحظ أن الجزء الأول من رواية ياقوت حول الخزر موجود لدى الاصطخري، وأنه على الرغم من عزو المادة إلى ابن فضلان، فإن الأصطخري هو المصدر[4]، لقد كانت هذه صورة الحال، لكن لم يكن هنالك من برهان، ولذلك فإن كموسكو الذي كان يكتب عام 1921 ملك المسوغ في عدم اعتماده لهذه الرواية[5]، فقد اعتقد كموسكو أن ابن فضلان ملك كثيراً من المعلومات حول الخزر توافقت مع ما أورده الاصطخري، وكانت هنالك حقيقة لا يمكن نكرانها في أن ياقوت قدم عدة صفحات عزاها إلى ابن فضلان، وهي نفسها قد ظهرت أيضاً في طبعة دي غويه لكتاب الأصطخري، وقد علل كموسكو هذا بالافتراض بأن الأصطخري وابن فضلان قد نهلا من مصدر واحد مشترك، وقد قال آخرون: بما أن ابن فضلان كتب قبل الأصطخري،

---

(1) لدى ابن حوقل الذي كان يكتب 367/ 977 أحياناً بعض المواد الجديدة، خاصة عن الحملة الروسية التي دمرت عاصمة الخزر، لكنه كان في العادة ينقل عن الاصطخري.

(2) معجم البلدان: 2/ 436.

(3) من المحتمل أن صيغة Y. L. K. صيغة غلط وليست شكلاً بديلاً. انظر تعليق زكي وليدي (ابن فضلان: 257) وهو ليس واضح بالنسبة لي.

(4) انظر «وستنفيلد» معجم البلدان: 5/ 173.

(5) انظر مقالة:

Die Quellen Istachri's in seinem Berichte uber die chasaren. Korosi csoma-Archivum, I (1921), 141.

فمن الممكن أن الأصطخري قد نقل عنه، ورفض كموسكو هذا الرأي على أساس أن قبوله يعني أن الأصطخري قد استبدل رواية بروايه أقل حيوية[1]، فقط من أجل الاعتماد على ابن فضلان بالنسبة لموضوع الخاقان (أي الجزء الأخير من رواية ياقوت) ولاشك أن كموسكو كان محقاً في اعتراضه على فراهن وغيزلكون في قوله: إن الأصطخري لم ينقل عن ابن فضلان، ووجه الانتباه إلى الروايات الموازية التي نملكها حول الخاقان، لكن نظريته حول مصدر مشترك لابن فضلان والاصطخري (التي أثير ضدها التقدير الرئيسي في أن رحالة مثل ابن فضلان كان لا يقوم بالعادة بالنقل عن مصدر سالف مثل هذه الكمية) قد نقضت بوساطة نص نسخة مشهد من ابن فضلان، الذي نشره زكي وليدي[2]، فهنا نجد أنه لا يوجد قاسم مشترك بين ابن فضلان والاصطخري، فعندما شرع ابن فضلان بالحديث عن الخزر نجد جميع ما قاله موجوداً في الجزء الأخير من مادة ياقوت، وعلى هذا بات من الواضح أن دعوى ياقوت غير صحيحة، فالجزء الأول من مادته منقول عن الاصطخري، لكنه عزاه لسبب ما إلى ابن فضلان، بدلاً من متابعة رواية ما قاله الاصطخري حول الخاقان أقدم على إثبات ما كتبه ابن فضلان، ومن الطبيعي أن هنالك فوارق بين الروايتين وتداخل، مع ذلك يمكننا الآن استخدام كلتيهما كمصدر مستقل[3].

ورأى كموسكو أنه من الممكن أن يمضي في فرضيته إلى حد إظهار أن رواية الاصطخري عن الخزر تتألف بالأصل من جزئين، يشير واحد منهما بوضوح إلى تهود الخزر، ويعود تاريخه إلى حوالي عام 800م، وإذا كان من الممكن افتراض شيء من هذا القبيل، فمن الطبيعي أن تغدو الرواية المتوارثة التي تحدد تاريخ التحول بعام 740م، رواية قوية جداً، ويمكن بالتالي رفض التاريخ البديل (بعيد 853 لدى مرقورات[4] و865 لدى

(1) انظر عبارته التي تبدأ بـ «بالنسبة لسياستهم» السالفة، وقارنها بما جاء عند ابن فضلان الذي سيعرض فيما بعد.

(2) ابن فضلان.

(3) إن ما كتبه الأستاذ هـ. ويترفي (Z. D. M. G.: 1942، 126، الحاشية) مسوغ من حيث المبدأ، لكن التناقض بين الجزء الأول من مادة ياقوت والجزء الثاني يدفعنا إلى الاعتقاد أنه لم ينقل عن كتاب المؤلف مباشرة، وأن مادته لا تتوافق تماماً مع كتاب ابن فضلان.

(4) مرقوارت: 23.

فيرنادسكي)[1] بكل اطمئنان، وتتضح نقطة الضعف في مناقشة كموسكو المفصلة، في رأيه الخاطئ حول ما حوته رواية ابن فضلان، عن الخزر، ويبقى علينا أن نرى فيما إذا كانت نظريته حول رواية الاصطخري تحوي شيئاً ما فيها، وفيما إذا كانت كلها أو بعضها يعود بتاريخه إلى حوالي عام 800م، ولابد في البداية من التبيان أن الاقتراح في أن رواية الاصطخري (الرواية الكاملة وليس كما روى ياقوت) تتألف من جزئين منفصلين أصلاً، اقتراح جذاب.

ولقد جاء ترتيب المسائل الرئيسة التي عالجها الاصطخري كما يلي: الخزر مع إشارة خاصة إلى الملك [بك - باك] - نهر اتل (الفولغا) - سمندر والسرير وبرطاس - الخزر، مع إشارة خاصة إلى الخاقان - برطاس، والبشكير، والبلغار، والروس، وهكذا نجد أن كل جزء يمكن أن يبدأ بالخزر ومن ثم ينتقل إلى جيرانهم، مقدماً مجموعات رئيسة من الأسماء مع الشعوب الأخرى المجاورة في الشمال[2]، ومن الملاحظ أن اسم برطاس قد جرى تكرار ذكره مرتين، كما أن هناك آثاراً أخرى للتكرار والتباين، خاصة ما قيل حول ما يستورده الخزر وحول لغتهم.

وقد ذكر الاصطخري في نهاية روايته أن بيت الخاقان أعلى من بيت البك، في حين نجده قد أشار قبل ذلك إلى قلعة الملك [البك] على أنها المبنى الرئيسي، وليست هذه المعايير جميع ما يمكن قوله كما أنها ليست نهائية، ولكن على العموم يمكن القول: إن كموسكو كان كما يبدو محقاً، وإن رواية الاصطخري تبدو وكأنها جمعت أصلاً من عدة روايات، ومن ثم صنفت بشكل منتظم.

أما بالنسبة للتأريخ فتبدو النتيجة التي توصل إليها كموسكو موضع شك أكبر، ذلك أنه افترض أن الاصطخري قد أشار في أحد الأمكنة إلى حقبة كان الخزر لا يملكون فيها قوات مرتزقة، بل «نوعاً من أنواع المليشيات» فقط، أو لنقل بكلمة أفضل: «عدداً من

---

(1) «روسيا القديمة» (1943): 351. حيث نقل عن مقاله «تاريخ تحول الخزر إلى اليهودية» يبزنطيوم: 15/ (1941) 76 - 86.

(2) في نطاق هذه الخطة لعل هناك آثاراً للخضوع، انظر الحواشي: 23، 36.

العصاة»[1]، ويبدو أنه حين قال هذا، كان يفكر بكلمات الاصطخري التالية: «وللملك من الجيش اثنا عشر ألف رجل، وإذا مات منهم رجل أقيم آخر مكانه، وليست لهم جراية دارة إلا شيء نزر يسير يصل إليهم في المدة الطويلة، إذا كان لهم حرب، أو حزبهم أمر يجتمعون له»، وحاجج فيما بعد في أننا نعرف بوجود جيش نظامي من المسلمين في بلاد الخزر، وذلك من ابن رسته (؟)، والمسعودي بدءاً من حوالي عام 800 عندما بدا أن الجيش الخزري قد أعيد تنظيمه، وبالنسبة لكموسكو تشرح نظريته أن الجيش تكون فيما بعد من مسلمين لم يرغبوا في أن يرسلوا إلى مقاتلة أبناء دينهم، لماذا، والخلافة أضعف مما سلف، لم يهاجمها الخزر بعد هجماتهم عليها سنة 145هـ/ 762م، وسنة 183هـ/ 799م (انظر فيما يلي الفصل السابع)، وهذا كله جيد، لكن لا يوجد دليل حقيقي على أن الجيش الخزري قد أعيد تنظيمه حوالي سنة 800م، وفي الحقيقة يشير المسعودي إلى أن ملك الخزر وحده في تلك البلاد كان لديه جيشاً، له أعطيات، وقال بأن الجماعات المعروفة باسم «الأرسية»[2]، تشكل جيش الملك، وهي جماعات جاءت إلى بلاد الخزر «من نحو بلاد خوارزم»، وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام، هذا وليس من السهل تحديد هذا التاريخ، ولا يقول ابن رسته شيئاً محدداً حول المسلمين في الجيش الخزري، وفي جميع الأحوال تشير روايته بدون شك إلى النصف الأول من القرن التاسع، (انظر ما يلي) ومع ذلك لا يمكن الاعتماد عليها في إثبات فرضية أن جيش الخزر قد أعيد تنظيمه في حوالي سنة 800م، زد على هذا أن كلمات الاصطخري توحي ـ كما يبدو ـ بشكل واضح بوجود جيش[3] دائم.

ويمكننا القول بشكل عام، إن الانطباع الذي تركته رواية الاصطخري عن الخزر، سواء ككتله واحدة أم كأجزاء، هو أنها تشير إلى حقبة ليست بعيدة جداً عن عصره، ويبدو أن رأي كموسكو حول التاريخ بشكل خاص استنتاج جريء، استخرج من توقف هجمات الخزر على المسلمين بعد سنة 800م، الأمر الذي لا نعرف سببه، ومن الممكن

---

(1) «متمردون» كموسكو، المصدر نفسه.

(2) انظر الحاشية 21، وانظر ما يلي في الفصل السابع، الصيغة غير مؤكدة.

(3) هكذا عدّه مرقوارت: 4.

تصور صحة هذا الرأي، لكن لا يمكن بيسر استخدامه في تأييد وجود تاريخ سالف لهذا من أجل التحول إلى اليهودية.

إذا كان الانطباع الذي تركته رواية الاصطخري حول الخزر هو انطباع يمكن وصفه بالمعاصرة، فإن العكس هو بالنسبة لوضع ابن رسته، ولما قاله حول الموضوع نفسه، مع أن الفارق الزمني بينهما ينبغي ألا يتجاوز الثلاثين سنة، ذلك أن ابن رسته قد أكمل تصنيف موسوعته، التي ستنتزع منها مادته حول الخزر التي ستعرض بعد قليل، أكملها حوالي سنة 290هـ/ 903م، وقد كتب الاصطخري في حوالي سنة 320هـ/ 932م، وقد جاءت مادة[1] ابن رسته قصيرة تماماً، وورد فيها قوله: «بين البجناكية (البشناق) والخزر مسيرة عشرة أيام في مفاوز ومشاجر، وليس بينها وبين الخزر طريق مسلوك ومناهج مقصودة، وإنما مسيرهم في مثل هذه المشاجر والغياض حتى يوافوا بلاد الخزر، وبلاد الخزر بلاد عريضة يتصل بإحدى جنباتها جبل عظيم [القوقاز]، وهو الجبل الذي ينزل في أقصاه طولاس[2]، وأوغاز [أبخاز]، ويمتد هذا الجبل إلى بلاد تفليس.

ولهم ملك يقال له إيشا، والملك الأعظم إنما هو خزرخاقان، وليس له من طاعة الخزر إلا الاسم، ومقدار الأمر على إيشا إذا كان في القيادة والجيوش بالموضع الذي لا يبالي معه بأحد فوقه، ورئيسهم الأعظم على دين اليهود، وكذلك إيشا، ومن يميل ميله من القواد والعظماء، والبقية منهم على دين شبيه بدين الأتراك.

ومدينتهم سارغشن[3]، وبها مدينة أخرى يقال لها هب نلغ؟ أو حبلغ، ومقام أهلها في الشتاء في هاتين المدينتين، فإذا كان أيام الربيع خرجوا إلى الصحارى، فلم يزالوا بها إلى إقبال الشتاء وفي هاتين المدينتين خلق من المسلمين، لهم مساجد وأئمة ومؤذنون وكتاتيب.

قد وظف ملكهم إيشا على أهل القوة واليسار منهم فرساناً على قدر أموالهم، واتساع أحوالهم في المعاش، وهم يغزون البجناكية في كل سنة، وإيشا هذا يتولى الخروج بنفسه، ويخرج في مغازيه بعساكره، ولهم جمال ظاهر، وإذ خرجوا في وجه من الوجوه

---

(1) تحقيق دي غويه. 139 ـ 140.

(2) مجموع مع «آس»، انظر مينورسكي، حدود: 456.

(3) أو «فيها»، «قربها».

خرجوا بأسلحة تامة محلاة، وأعلام، وطرادات، وجواشن محكمة، وركوبه في عشرة آلاف فارس ممن هو مرتبط أجري عليهم، وفيه من قد وظف على الأغنياء، وإذا خرج لوجه من الوجوه هُيِّئ بين يديه مثل شمسه على صنعة الدف، يحتمله فارس يسير به أمامه، فهو يسير وعسكره خلفه يبهرون ضوء تلك الشمسه، فإذا غنموا جمعوا تلك الغنائم كلها في معسكره، ثم اختار إيشا منها ما أحب، وأخذه لنفسه، وأطلق لهم باقي الغنيمة ليقتسموها بينهم».

وتوجد هنا بعض النقاط الجديدة الهامة، فالملك الأدنى يدعى هنا باسم إيشا، وهو لا يشبه تماماً البك أو الباك لدى الاصطخري، وتبعاً لابن رسته لم تكن عاصمة بلاد الخزر، لا مدينة البيضاء المذكورة لدى المؤرخين العرب، ولا مدينة خزران، أو أتل، المذكورة لدى الجغرافيين (مثل ابن حوقل) بل سارغشن، وهي التي ورد ذكرها ها هنا مع بلدة أخرى، ولعلها خان بليغ أو خام بليغ (خمليج)، ولدى الكرديزي الذي كتب بالفارسية في حوالي سنة 1050م مادة[1] تشبه مادة ابن رسته، فهنا يظهر الملك الأدنى لدى الخزر باسم أبشاد، وتشابه أسماء البلدان لدى الكرديزي ما أثبته ابن رسته شبهاً شديداً، كما وتشابه الأشكال التي قدمها شرف الزمان مروزي الذي كان كاتباً من القرن الحادي عشر، لديه نص عربي مختصر عن المادة العامة[2] نفسها.

وللوهلة الأولى ليس هنالك من رابط عام، يربط إيشا، أو أبشاد، والبك الوارد ذكره في المصدر الآخر، وقد تأكد وجود الأخير ـ كما يبدو ـ ليس من قبل ابن فضلان الذي سمى خاقان به، كملك أدنى ـ فحسب بل من قبل المصادر الإغريقية حيث نجد مرتبه «به» وأيضاً اللقب التركي المتأخر بك أو بي، وهكذا يثير إيشا وأبشاد مشكلة حقيقية، ولاشك في أن الأصل الذي جاءت منه هاتين الكلمتان قد قرأ من حيث الصيغة بشكل مختلف، وهنالك اتفاق عام أن الجزء الثاني من الكلمة لابد وأنه اللقب «شاد» الموجود في أماكن أخرى[3]، وقد اقترح زكي وليدي أنه يتوجب علينا أن نقرأ العبارة أبا ـ شاد، وأن عبارة

---

(1) تحقيق بارثولد: 95...

(2) تحقيق مينورسكي، الجمعية الملكية الآسيوية (التحويل الطويل 22) 1942.

(3) انظر شات بن زيبل وشات، خزر، سابقاً.

«ابا» أو «غبي» هي عبارة «به» نفسها لدى ابن فضلان، ومن المفترض أيضاً أنها عبارة «بك» نفسها لدى الاصطخري[1].

أما بالنسبة لسارغشن وخان بليغ، فيبدو أن ذلك يشير إلى مدينة مزدوجة، وأن المعني بذلك خزران ـ أتل، ويمكننا أن نقارن ذلك ببودا ـ بست كموقع يحمل اسمين منفصلين لمكانين للاستقرار يواجه أحدهما الآخر عبر النهر، والقيام هنا بعملية للترجمة الحرفية للأسماء مفيدة[2] ومساعدة، وذلك أنه ينبغي أن يكون معنى سارغشن (البلدة) الصفراء، ولاشك أن كلمة «البيضاء» الواردة بالعربية يمكن أن تطلق عليها كما رأينا، أما بالنسبة للعاصمة الخزرية «خان بليغ» (هب بليغ) فتبعاً لزجتشكوويسكي Zajaczkwaski تعني «البلدة كلها»[3]، ومن المحتمل أن الكلمة هي كلمة «خمليج» أو (خمليخ) نفسها، وهي عاصمة الخزر تبعاً لابن خرداذبه[4]، أو بشكل أدق، الجزء الشرقي وهو النصف التجاري من البلدة[5]، أما بالنسبة للمطابقة بين سارغشن وسقسين فلدينا ما نقوله حولها فيما بعد.

وتحتوي رواية الكرديزي عن الخزر أشياء ليست موجودة لدى ابن رسته، وتقدم إحدى الإضافات معلومات ليست موجودة في مكان آخر حول التنظيمات العسكرية لدى الخزر، منها أن القائد (سلار) الذي لربما كان المعني تحت اسم أبشاد (أبا شاد) أو بك، كان يصدر الأوامر بأن على كل واحد من رجاله أن يحمل معه عصاً مدببة لها طول محدد أو سماكة، لبناء سور يدعم بالترسة، وذلك حول المعسكر أثناء حملة من الحملات، ويخبرنا أيضاً أن الخزر فرضوا جباية صغيرة على المسلمين في البلدتين، وقد أشار ـ كما يبدو ـ إلى حملة على برطاس، الأمر الذي التزم ابن رسته تجاهه الصمت، وقال أيضاً: في بلاد الخزر

---

(1) ابن فضلان: 257. الاقتراحات الأخرى: أل شاد (مرقوارت: 24) أي ـ شاد (مينورسكي) وألب ـ شاد (زاجتشكوسكي) واقترح مونكاسي أب ـ شاد ـ نقلاً عن زكي وليدي، المصدر نفسه.

(2) زاجتشكوسكي (انظر أيضاً ـ وبرتساك. در ـ اسلام. ب 29، 99) ومثله مرقوارت: 1 (سريغشهر) ومينورسكي، حدود: 453. ويقترح برتساك «المدينة الغربية».

(3) انظر برتساك، المصدر نفسه: 99.

(4) انظر الحاشية 44.

(5) مرقوارت: 203. انظر مينورسكي، حدود: 454.

حقول وحدائق وكميات من الأشياء الجيدة، وهناك عسل كثير، وشمع جيد يجلب من هناك، وهذا ما لم يذكر ابن رسته حوله شيئاً.

وفي عودة نحو ابن رسته، هنالك اتفاق عام على أنه لم يكن المؤلف الحقيقي للأوصاف التي نجدها في كتابه حول الخزر والشعوب الشمالية الأخرى، ويبدو أن هذه الأوصاف ترجع إلى الجيهاني، الذي يعدّ كتابه الجغرافي بحكم المفقود[1]، ونلاحظ في مادة الجيهاني، كما عرضها ابن رسته آثاراً لا يمكن استبعادها توحي بتاريخ أقدم، فلقد قابل ابن فضلان الجيهاني في سنة 309/ 921، وهو في طريقه إلى زيارة بلغار الفولغا، ومن الواضح أن مواد كتاب الجيهاني توحي بسلسلة من التواريخ، ولم يقتصر الأمر على تفاصيل مبعثرة ـ منقولة كما هو مفترض عن الجيهاني، مثل أن بريطانيا كانت تحكم من قبل سبعة ملوك، وهي صورة حال زالت من الوجود عام 827[2]، عندما تبدد الحكم الهبتارشي Heptarchy وهذا الأمر موجود أيضاً لدى ابن رسته، ويشير إلى النصف الأول من القرن التاسع ـ بل تناول الأمر شعوباً بأسرها ذكر أنها كانت موجودة في هذا التاريخ وفيما بعد، مثل البشناق[3]، ويمكن أن نتقبل مع بارثولد[4] أن المصدر الأساسي لمادة الجيهاني حول الشعوب الشمالية قد كان مسلم بن أبي مسلم الجرمي، الذي كان حياً سنة 231/ 846، ومعروف أنه قد كتب حول الروم البيزنطيين وجيرانهم بما في ذلك الخزر[5]، ولقد كان ابن خرداذبه يعرف كتاب الجرمي[6]، وقد استخدم الجيهاني هذا الكتاب مباشرة، أو من خلال ابن خرداذبه[7].

ومسألة أن رواية ابن رسته حول الخزر تحتوي على بعض الآثار العائدة إلى تاريخ أبكر يصل إلى الجرمي هي مسألة مؤكدة تماماً، حتى وإن كنا سنجد فيما بعد أن قضية

---

(1) انظر مرقوارت: 24 ـ 27. بارثولد، الموسوعة الإسلامية، مادة «بلغار» مينورسكي، حدود 17 و«الجيهاني المزيف» دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية 1949: 13/ 1، 89 ـ 96.

(2) مرقوارت: 29.

(3) مرقوارت: 160.

(4) المصدر نفسه: 28.

(5) المسعودي، التنبيه: 191.

(6) تحقيق دي غويه: 105.

(7) انظر مينورسكي، حدود: 16.

مجريات التحول قد كانت مختلفة عما افترضناه، ولا يقتصر الأمر ببساطة على أننا نجد عند ابن رسته اسمي: سارغشن، وخان بليغ، وهما اسمان خرجا عن نطاق الاستعمال في القرن العاشر، كما نستخرج من ابن حوقل، فقد ذكر ابن فضلان أن الملك الثاني لدى الخزر قد دعي في أيامه [310/ 922] باسم خاقان به، لكن ابن رسته يعرفه باسم إيشا (أيا ـ شاد، أبي ـ شاد)، ولابد أن يشير هذا إلى تاريخ ـ على الأقل ـ أبكر من سنة 833، عندما كان هذا الملك يدعى بهذا اللقب، حسبما نجد في الرواية الإغريقية لبناء ساركيل Sarkil[1]، هذا وليس من الواضح لدينا المدى الذي يمكننا أن نرجع إليه رواية ابن رسته، وحيث أن بلدتيه تشيران إلى خزران ـ أتل المتأخرة، فليس من الممكن في أي حال من الأحوال أنها أقدم من تاريخ تحويل الخزر عاصمتهم إلى الفولغا، ولكن بما أن هذه الواقعة قد حدثت ـ كما قيل ـ أيام سلمان بن ربيعة[2]، فمن الممكن نظرياً أن رواية ابن رسته تصور وقتاً مبكراً يرقى إلى سنة 740م، عندما قيل بأن الخزر قد تبنوا اليهودية.

ومهما يكن الحال فقد اعترض مرقوارت على أن لا تكون رواية ابن رسته قديمة كلياً، واستشهد على أنها قالت: يوجد في مدينتي الخزر أعداد كبيرة من المسلمين مع مساجد، وأئمة، ومؤذنين، ومدارس[3]، لكن هذا لا يمكن أن يعرض كنص مقحم، فليس من الخطأ بمكان أن نتحدث عن الإسلام وقد أرسيت قواعده في بلاد الخزر في الجزء الأول من القرن التاسع، فهذا ما يتوجب علينا أن نتوقع استخراجه من المصادر الأخرى، فقد ذكر ابن خرداذبه (حوالي 232/ 846) أن قبلة بلاد الخزر موجهة نحو الكعبة في مكة[4]، ويبدو من المؤكد أن ابن خرداذبه يشير هنا إلى الأرسيه الذين سلف ذكرهم، ويبدو أن هذا الشعب كان شعباً كبيراً، وأنه قد تحول إلى الإسلام، ومن الطبيعي أنه امتلك قبل 833م، المؤسسات الدينية التي أشار إليها ابن رسته.

---

(1) انظر الفصل السابع.

(2) انظر ما سلف الفصل الثالث، الحاشية 43.

(3) مرقوارت: 27.

(4) تحقيق دي غويه: 5.

ومن الممكن أن يحاجج هنا أن حقيقة كون ملك الخزر يهودياً قد جرى إضافتها من قبل الجيهاني أو إنسان آخر إلى رواية قديمة، لكن في هذه الحالة يبدو من المحتمل جداً إدخال آثار أخرى «معاصرة»، وحيث أن هذا ما لا نجده، يتبع ذلك أن رواية ابن رسته حول الخزر هي كتلة واحدة متماسكة، ومن الصعب رفض المحصلة: أن الخزر، أو على الأقل ملوكهم وبعض الشخصيات البارزة كانوا يهوداً، ليس بعد النصف الأول من القرن التاسع[1].

ومن الموائم أن نقدم هنا رواية ابن فضلان حول الخزر، مع الانتباه أن عرض هذه الرواية لا يعني الاقتراح أنها جاءت جميعها نتيجة مشاهدات شخصية، فالذي كتبه ابن فضلان قد سمعه من بلغار الفولغا، ولربما سمع شطراً منه ابن باشتو، وهو خزري رحل معه من بغداد حتى بخارى، وفي ضوء العلاقات السيئة بين حاكم الخزر وبين يلطوار (إلتيبر[2] Elteber) حاكم البلغار الذي كان من أتباعه الاسميين.

ويمكننا أن نكون متأكدين تماماً أن الذين زودوا ابن فضلان بالمعلومات لم يكونوا ممن يكرهون الخزر عن سالف تصور، بل العكس، ويمكن تلمس آثار الموضوعية في أكثر من مكان من مادة ابن فضلان، ونشهد هذه الموضوعية حتى لدى حديثه عن التراتيب الداخلية بالنسبة للخاقان، الذي ذكر أنه كان لديه خمساً وعشرين زوجة، وستين سرية من الجواري، وإذا ما اعتمدنا معيار النبي سليمان فإن هذا العدد يحوي شيئاً من المبالغة.

ومهما يكن الأمر فإن حريم الخاقان قد جرت الإشارة إليه بعد هذا بقليل من قبل المسعودي[3]، وعلينا أن نذكر أن الحديث عن خمس عشرين زوجة «كل امرأة منهن ابنة ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه» لابد وأن له بعض العلاقة بما ورد في إحدى روايات: «الدادها ـ داني Eldad ha-Dani» (وجد في أواخر القرن التاسع) من أن خاقان الخزر كان يدخل في طاعته خمسة وعشرين ملكاً[4].

---

(1) إن ما جاء عند ابن الفقيه (حوالي 290/ 903) قوله في ص (293): «والخزر كلهم يهود، وإنما هودت من قريب» منقول عن الجرمي عبر الجيهاني (انظر الفهرس: 154. نقلاً عن مينورسكي، حدود: 17).

(2) انظر زكي وليدي، ابن فضلان: 105.

(3) انظر مايلي.

(4) من أجل رواية الدادها ـ داني، انظر الفصل السادس.

وتلقي هذه الحالة ضوءاً مباشراً على ما تخبرنا به رواية ابن فضلان حول كيف أن زعيم البلغار قد حاول إنقاذ ابنته من «ملك الخزر»، ولاشك أنها وضحت لابن فضلان وهي مربوطة بهذا الحادث[1]، والمشكلة عند ذلك، ليست قائمة في عدد النساء كما ورد في هذه الصورة الخيالية، وإنما في أن كل واحدة منهن كان لها قلعة خاصة بها، وهذا لا يمكن تصوره بالنسبة لعاصمة الخزر حسبما سلف التبيان، فلقد تبين لنا من الأوصاف والشروح الأخرى وجود قلعة على مسافة من الفولغا[2] أو وجدت بدلاً من ذلك، في آونة أخرى، على جزيرة في وسط النهر[3]، حيث ـ كما هو متوقع ـ ملك كل من الخاقان والبك مقربهما ـ أو في أعظم الأحوال: لقد كان هناك بناءان ملكيان، فهذا ما نجده في المصادر العربية.

ونجد في العبرية في رد يوسف، أن الملكة قد عاشت مع جواريها وخصيانها منعزلة عن المعسكر، وهذا الأمر في حد ذاته ممكن تماماً، وكان بطبيعة هذه الأحوال لدى الخاقان ـ مثل بلغار المش ـ زوجة رئيسة (خاتون)[4]، مع أن هذا لم يشر إليه ابن فضلان، حيث يبدو أنه جرى تضليله حول هذه الأوضاع، ولاشك أنه لم يكن لكل واحدة من النساء قلعة خاصة، بل داراً، أو بالحري شقة داخل الحريم، ويبدو هذا واضحاً من الإشارة إلى وجود خصي واحد خاص قائم بحجابة كل امرأة، مع أنه يمكن القول أن هذا الترتيب قد جاء لتلبية رغبة الملك حيث كان إذا أراد واحدة منهن وافاه بها «في أسرع من لمح البصر»، ومع أنه في هذه العبارة كثير من المبالغة والخيال، لكنها تفيد أن البلاط عاش كله ضمن مسافة متقاربة، ويبدو أنه قد قصد من هذا النص عرض الملك اليهودي وهو مصاب بالشبق بشكل مثير للإزعاج، مثل وصف العقوبة التي كان الخاقان ينزلها بالقادة المخفقين، كل ذلك في وقت رأينا فيه أن نشاطاته وممارساته في المصادر الأخرى، لا بل حتى لدى ابن فضلان كانت مجرد أمور سطحية، أو حتى غير موجودة، ولعل القصد من هذا كله الرغبة في إظهار طاغية، قوله فصل، بشكل وحشي.

---

(1) ابن فضلان: 78.

(2) الاصطخري، ابن حوقل.

(3) المسعودي (فيما يلي). ابن سعيد في أبي الفداء: 203.

(4) من أجل قصة خاتون الخزر. انظر الفصل السابع.

وفيما عدا بعض الإشارات العرضية إلى الخزر أثناء قيامه برواية قصته، إشارات توحي بمشاعر عدم المحبة والخوف التي شعر بها ملك البلغار تجاه أسياده اليهود[1]، فإن مجمل ما ذكره ابن فضلان عن الخزر هو ما يلي:

«فأما ملك الخزر واسمه خاقان، فإنه لا يظهر إلاّ في كل أربعة أشهر متنزهاً، ويقال له خاقان الكبير، ويقال لخليفته خاقان به، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها، ويدبر أمر المملكة ويقوم بها، ويظهر ويغزو، وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الإخبات والسكينة، ولا يدخل عليه إلا حافياً وبيده حطب، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب، فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلفه رجل يقال كندر خاقان[2]، ويخلف هذا أيضاً رجل يقال له جاوشيغر[3].

ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم، ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا، والولايات في الحل والعقد والعقوبات، وتدبير المملكة على خليفته خاقان به.

ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً، ويحفر له في كل بيت منها قبر، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه، وتطرح النورة فوق ذلك، وتحت الدار نهر[4]، والنهر نهر كبير يجري، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر[5]، ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان، ولا إنسان، ولا دود، ولا هوام.

---

(1) 48، 78.

(2) زكي وليدي (ابن فضلان: 260) حيث يربط لقب المجر: كوندو كوندا وقرأهم هنا بدلاً كندر، كندا التي منها كندا جيق (انظر ما سلف) مختصرة. (المصدر نفسه: 135، حاشية 2) ويقترح زاجاتشوزكوسكي (دراسات: 33) «كوندور، «كبير القضاة».

(3) انظر الفصل الثاني.

(4) نص ياقوت المطبوع هنا غير مفهوم حيث جاء: «وتحت الدار والنهر نهر كبير يجري» وقد اقترح فراهن كلمة «والقبر» بدلاً من «والنهر». (خزر: 608) وإضافة كلمة «نهر» بعد «الدار» في نص زكي وليدي يعيد للنص بساطته.

(5) جاء في النص المطبوع «ويجعلون القبر فوق ذلك النهر» وقد جاء مصححاً في نص زكي وليدي.

وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت، ويسمى قبره الجنة: ويقولون: قد دخل الجنة، وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب.

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه، يأخذها طوعاً أو كرهاً، وله من الجواري السراري لفراشه ستون، ما منهن إلا فائقة الجمال، وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد، له قبة مغشاة بالساج، وحول كل قبة مضرب، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها، فيوافي بها أسرع من لمح البصر، حتى يجعلها في فراشه، ويقف الخادم على باب قبة الملك، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة.

وإذا ركب هذا الملك الكبير، ركبت سائر الجيوش لركوبه، ويكون بينه وبين المواكب ميل، فلا يراه أحد من رعيته إلا خرّ لوجهه ساجداً له، لا يرفع رأسه حتى يجوزه[1].

ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته، وقالوا: هذا قد نقص عقله، واضطرب رأيه[2].

وإذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها، فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم، فوهبهم بحضرتهم لغيرهم، وهم ينظرون، وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم، وربما

---

(1) جاء عند ابن فضلان: 60 «فإذا ركب الملك (ملك البلغار) ركب وحده بغير غلام ولا أحد يكون معه، فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه». إن المقارنة بين البلغار الأحرار، والخزر ممكنة إلى بعض الحدود. انظر ما قاله الاصطخري عن السجود في بلاد الخزر (ذكره ثلاث مرات).

(2) انظر أيضاً المسعودي فيما يلي في الفصل السابع، ويقول ساكسو غراميتكوس وجد بين الصقالبة (السلاف) قانون عام تعلق بالشيوخ ومكانتهم، قضى بأن يقوم الجيل التالي بذبح الملوك» ترجمة التون لندن 1894: 334.

قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر، وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة[1].

وللملك الخزر مدينة عظيمة على نهر أتل، وهي جانبان، في أحد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز[2]، وهو مسلم، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر، والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم، لا ينظر في أمورهم، ولا يقضي بينهم غيره»[3].

«وللمسلمين في هذه المدينة مسجد جامع يصلون فيه الصلاة، ويحضرون فيه أيام الجمع، وفيه منارة عالية وعدة مؤذنين، فلما اتصل بملك الخزر في سنة عشر وثلاثمائة أن المسلمين هدموا الكنيسة التي كانت في دار البابونج[4]، أمر بالمنارة فهدمت وقتل المؤذنين، وقال: لولا أني أخاف أن لا يبقى في بلاد الإسلام كنيسة إلا هدمت لهدمت المسجد.

والخزر ملكهم كلهم يهود[5]، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته، ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة، وقد ذهب بعضهم إلى أن يأجوج[6] ومأجوج هم الخزر»[7].

---

(1) ذكر كل من الاصطخري، وابن فضلان سلطات الخاقان في بعض الحالات، وليس عند المسعودي شيء من هذا القبيل.

(2) ربما حرير (خز) وتحدث المسعودي الذي كتب بعد أكثر من عشرين سنة عن وجود وزير مسلم اسمه أحمد بن كويه في عاصمة الخزر، من المفترض أن هؤلاء الرسميين كانوا يتولون تبادل المعلومات.

(3) أشار الاصطخري إلى وجود عدد من القضاة المسلمين، وأوضح هذا بشكل جلي المسعودي فقال هما قاضيان، واختلف الوزير الذي ورد ذكره في الحاشية المتقدمة عن القضاة.

(4) غير معروف كما يقول زكي وليدي (ابن فضلان: 102، الحاشية 4) وقاد بحث مرقوارت في النص (4/ 477 ـ 479) إلى عدم التوصل إلى حل لما عني بعبارة «بيت كومايل» كما أن جهوده لربط هذا الاسم بالأندلس (دار أذ البونج ـ بلاد أدافونس ـ ألفونسو) وبأعمال عمرو بن حفصون ليست مقنعة، وترجم زكي وليدي هنا كلمة «كنيسة» «كنيسة مسيحية» وهذا في إطاره غير صحيح، وقد عرض الخاقان وهو بالطبع غاضب لتهديم المسلمين كنيس خارج إطار نفوذه كما هو مفترض. إن ما اقترحه بروتزكوس في الموسوعة اليهودية، مادة: خزر، عن وجود بلدة بالقوقاز اسمها باب ـ الجنجار، معرض لعدة اعتراضات.

(5) من الواضح أن هذا مبالغ به. وقد حذف زكي وليدي من ياقوت كلمة «كلهم».

(6) الفقرة الأخيرة ليست من المطبوع من ابن فضلان، بل نقلت عن ياقوت ـ مادة خزر ـ عنه.

(7) عدّت الجمل الثلاث الأخيرة من قبل زكي وليدي على أنها مضافة من قبل ياقوت.

والحقيقة المثيرة هنا هو أن المساجد والأئمة والمؤذنين والمدارس الإسلامية في بلاد الخزر قد جرى ذكرها من قبل ابن رسته، بينما ظهر في رواية ابن فضلان المسجد الجامع ومؤذنوه فقط، وهذا لا يعني أن ما ذكره ابن رسته غير صحيح، أو أن الإسلام عانى من انتكاسة في بلاد الخزر في أيام ابن فضلان، فلقد تركز اهتمام ابن فضلان على رواية ما حدث للمسجد الجامع، وأغفل الأماكن الأخرى، إما لأنه لم يسمع بشيء خاص عنهم، أو لسبب آخر، وجاء ذكر مساجد بلاد الخزر بعد عشرين عاماً من قبل المسعودي[1]، وليس لدينا من سبب لافتراض وجود مسجد واحد عندما كان ابن فضلان في منطقة الفولغا.

وهنالك أهمية قصوى وفوائد كبيرة في رواية ابن فضلان إلى حد يمكن القول فيها: ما من مصدر عربي آخر حول الخزر يوازيها في الأهمية، وذلك على الرغم من عدم وجود شيء محدد فيها حول التحول إلى اليهودية، فلقد رأينا لدى الاصطخري بكل وضوح أن يهودية الملك ومن أحاط به قد قامت إلى جانب المؤسسات الموروثة من الماضي الوثني، هذا ولا علاقة البتة للملكية المزدوجة بقبول اليهودية، ولا تشبه شخصية الخاقان بأي شكل من الأشكال شخصية الحاخام (الكاهن) الأكبر لدى اليهود[2]، وتذكرنا ترتيبات الدفن بالروايات التي وصفت طقوس الدفن لكل من آلارك (410م) وآتيلا[3] (453م) وتربطها بشكل مباشر بماضي الترك القديم[4].

---

(1) انظر ما يلي الفصل السابع.

(2) جرت عدة محاولات لتفسير كلمة «خاقان» على أساس الكلمة العبرية حاخام، وقدم قاسم بك نظرية بأن الكلمة لها صلة بالكلمة العبرية «كاهن»، وليس هنالك حاجة إلى القول إن هذه الآراء جميعاً لا أساس من العلم لها، انظر الفصل السادس.

(3) انظر زكي وليدي، ابن فضلان: 266

(4) ينبغي أن نلاحظ أن ما أعلنه ع. ل. رسموسن (المجلة الآسيوية: 1/ 5 (1824) 305) من أن الخزر قد خاضوا في القرن السادس حرباً ضد الملك الدانماركي (الشمالي) فرود، من الصعب تأكيده إن لم يكن ذلك من المستحيل، ذلك أن كل من جوردانس، وغراماتيكوس، لم يذكرا شيئاً من هذا القبيل، والقول هذا قائم على الافتراض الضعيف فقط (من أن الخزر ربما هم الأكتزير، الذين ربما زحفوا مع الهون). على هذا الأساس فقط يمكن إقامة علاقة بين الخزر والملك فرود، أو بالحري مع واحد من الملوك من المفترض أنهم حملوا هذا الاسم.

ومن الواضح أن تهود الخاقان لم يقده نحو اقتلاع جذور العادات التي كان الشعب متعلقاً بها، ومن المتوجب ربط الوضع كما نراه ـ ليس من خلال ابن فضلان وحده ـ بدون شك يعدد من الحقائق بدونها يصعب التفسير، أولاها: مدى تأثر الخزر كشعب وثني استدرجه أولاً وكسبه في سنة 780م أبو التفليسي، وثانيها في حوالي سنة 860م قسطنطين سيرل Cyril ثم غياب المعلومات المتماسكة حول الخزر الصادر عن المركز الرئيسي لليهود في بابل (العراق)، مما يعني ـ كما يبدو ـ عدم الاهتمام بهم وبأعمالهم، المراحل التي مر بها تأسيس اليهودية في بلاد الخزر تبعاً «للمراسلات الخزرية» العبرية، وفي ضوء جميع الأدلة لا يوجد أدنى شك بالنسبة لحقيقة تهود الخزر، إنما لا ندري مدى عمق إيمانهم بها، ولا نعرف أيضاً درجه تقصيرهم عن الوصول إلى الحاخاميه الكاملة، علماً بأننا لا نرغب في الإصرار على القول: إن التحول الرسمي قد تم حوالي سنة 740م، إثر مناظرة دينية حسبما روى يهودا هاليفي، فذلك يبقى على عهدته دونما تأييد واضح من مصدر آخر، لكن أن يكون التأثير اليهودي قد بدئ يشعر به في بلاد الخزر قبل منتصف القرن الثامن، فأمر أكثر احتمالاً من القول بأن ذلك كان بعد سنة 860م، هذا وإن الإعلان بتحرج أن قادة الخزر قد أصبحوا يهوداً في تاريخ مبكر، هو ممكن إنما بصعوبة، ولكن في مواجهة الأدلة ككل فتلك بلا ريب المحصلة التي تقاد إليها.